التعريف بالإمام النووي رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بالإمام الجليل المحدث
محيى الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي
كتبه شيخ الأزهر أ. د. محمد سيد طنطاوي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه.. وبعد:

فهناك أناس وفقهم الله تعالى منذ صباهم عشق العلم، الذي أمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [سورة طه، الآية: ١١٤].

ومن هؤلاء الرجال الإمام الحافظ، شيخ الإسلام محيى الدين أبو زكريا، يحيى بن شرف، بن مري، بن حسن، بن حسين، بن محمد، بن جمعة، بن حزام النووي.

ولد رحمه الله في شهر المحرم سنة ٦٣١هـ في بلدة "نوى" التابعة في ذلك الزمان لمدينة "دمشق"، وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم.

وبدأت علامات النجابة وعشق العلم على ذلك الإمام الجليل منذ صباه، وقصّ علينا بعض مشايخه ما يدل على ذلك، فقد ذكروا أن الإمام النووي وهو في العاشرة من عمره، كان من هم في سنه من الصبيان يُكرِهونه على اللعب معهم إلا أنه يهرب منهم للتفرغ لما يعشقه وهو العلم النافع...

ورآه أحد المشايخ وهو على تلك الحالة فوقعت محبته في قلبه، وذهب إلى المعلم الذي كان الإمام النووي يتردد عليه وقال له: إن هذا الصبي سيكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم وينتفع الناس به..

فقال له معلم الإمام النووي: أمنجم أنت؟ فقال الشيخ: لا، وإنما أنطقني الله بذلك..

وقد تحققت فراسة هذا الشيخ، فإن الإمام النووي بعد ذلك واصل مطالعة العلم بشغف ونهم، فحفظ الكثير منها في مدة وجيزة، ثم رحل إلى دمشق لطلب المزيد من العلم وهو في التاسعة عشرة من عمره... ويقول في ترجمة حياته في تلك المرحلة من عمره

"قدم بي والدي إلى دمشق، فسكنت المدرسة الرواحية، وبقيت نحو سنتين لا أضع جنبي بالأرض، وأتقوت بجراية المدرسة لا غير. وحفظت "التنبيه" في نحو أربعة أشهر ونصف، ثم حفظت ربع العبادات من المهذب في باقي السنة، وجعلت أشرح وأصحح على شيخنا "الكمال إسحاق المغربي" ولازمته فأعجب بي، لما رأى من ملازمتي للاشتغال - بالعلم -، وأحبني محبة شديدة، وجعلني معيد المدرس بحلقته لأكثر الجماعة، فلما كانت سنة إحدى وخمسين من القرن السادس الهجري أديت فريضة الحج...

وواصل الإمام - النووي رحمه الله - عشقه للعلم، وأصبح قلبه خاليا إلا من التزود من العلوم على اختلاف ألوانها وأصنافها، وتعلّم وعلّم... واتجه إلى التأليف، فصنف "شرح مسلم" و"رياض الصالحين" و"الأذكار" و"الأربعين النووية" و"المنهاج" و"الإرشاد" و"التقريب"... وغير ذلك من أمهات كتب العلم التي تمتاز بالإخلاص، وبالدقة، وبالتحقيق السليم، وبالرأي الصائب، وبالفهم القويم، وبالشرح الذي يقرب البعيد، وييسر العسير، ويدخل السرور إلى كل قلب نقي طاهر، وإلى كل عقل يحسن التدبر... وتمتاز جميع مؤلفاته بالقبول، ببركة إخلاصه، وجهده، وسهره، لخدمة العلم النافع الذي عشقه وشغله عن كل شيء سواه، حتى الزواج...

لقد كان رحمه الله على رأس العلماء الذين قضوا حياتهم في خدمة القرآن الكريم، وفي خدمة السنة النبوية، وفي خدمة شريعة الإسلام، وفي خدمة كل ما يعود عليه وعلى أمته بالخير..

كان رحمه الله مضرب الأمثال في الورع وفي الزهد، وفي التقلل من الدنيا ومتعها ولذاتها، وفي المراقبة لله تعالى في السر والعلانية.

وكان يواجه الملوك والأمراء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكتب لهم الرسائل ناصحا إياهم بالعدل وبالتحلي بمكارم الأخلاق...

قال فيه بعض العلماء: كان الإمام النووي قد صارت إليه ثلاث مراتب، كل مرتبة منها لو كانت لشخص لشدت إليه الرحال: المرتبة الأولى: العلم، والمرتبة الثانية: الزهد، والمرتبة الثالثة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ مثالا للأدب العالي، وللطيب من القول، وللصالح من العمل، وللطاهر من السلوك، وللحسن من الأخلاق، وللجميل من المودة والمحبة لتلاميذه وشيوخه... ولذا كان موضع الإجلال والثقة والمحبة من العلماء ومن كل ذي عقل سليم.

وفي السنة التي لحق فيها بربه عز وجل وهي سنة ست وسبعين وستمائة، قفل راجعا إلى مسقط رأسه إلى بلدة "نوى" بعد أن رد الكتب المستعارة من الأوقاف، وزار مقابر شيوخه فقرأ ودعا وبكى، وزار أصحابه الأحياء وودعهم، فخرج جماعة منهم لتوديعه إلى خارج دمشق، وسألوه متى الاجتماع؟ فقال: علم ذلك عند الله تعالى.

وبعد أن زار والده، زار بيت المقدس، وقبر الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم عاد إلى بلدته "نوى" فمرض بها، ولحق بربه في ليلة الأربعاء، ليلة أربع وعشرين من شهر رجب سنة ٦٧٦هـ.

وخرج الآلاف من سكان بلدته، ومن سكان دمشق لتوديعه وللصلاة عليه، وللدعاء له رَحِمَهُ اللَّهُ.

نسأل الله تعالى أن يحشرنا جميعا في زمرة الصالحين من عباده..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين....

كتبه

شيخ الأزهر

أ. د. محمد سيد طنطاوي